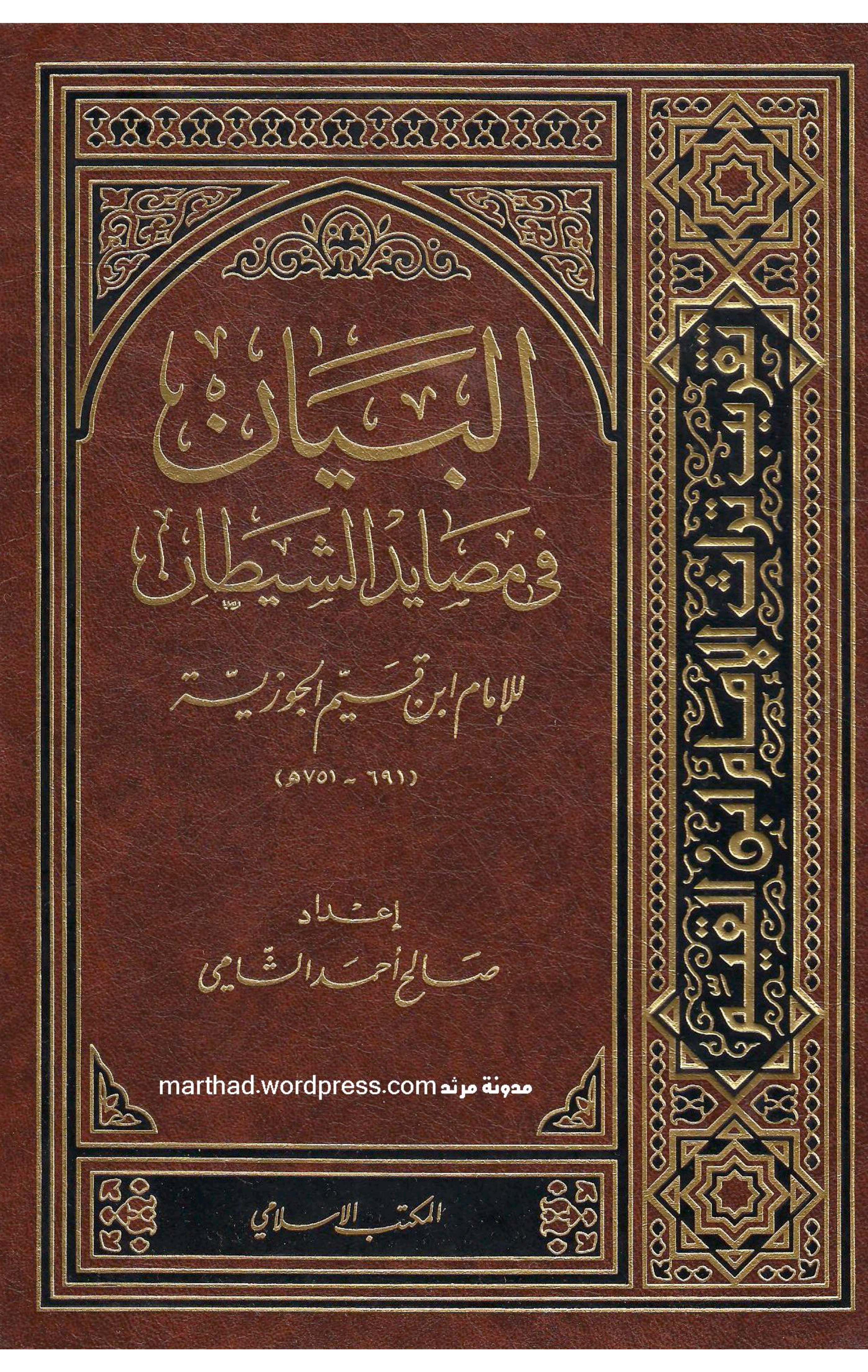


تهذيب تراث الإمام ابن القيم
البيان
في مصايد الشيطان
للإمام ابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١هـ)
إعداد
صالح أحمد الشامي
مدونة مرثد marthad.wordpress.com
المكتب الإسلامي

هذه صفحات من هذا الكتاب المبتكر



وقد استئذناه - حفظه الله - في

تصوير "بعض" صفحات كتبه فأذن جزاه الله خيراً

تصوير

marthad.wordpress.com

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

موقع الشيخ صالح الشامي

saleh.shami.me

نشر على موقع الألوكة

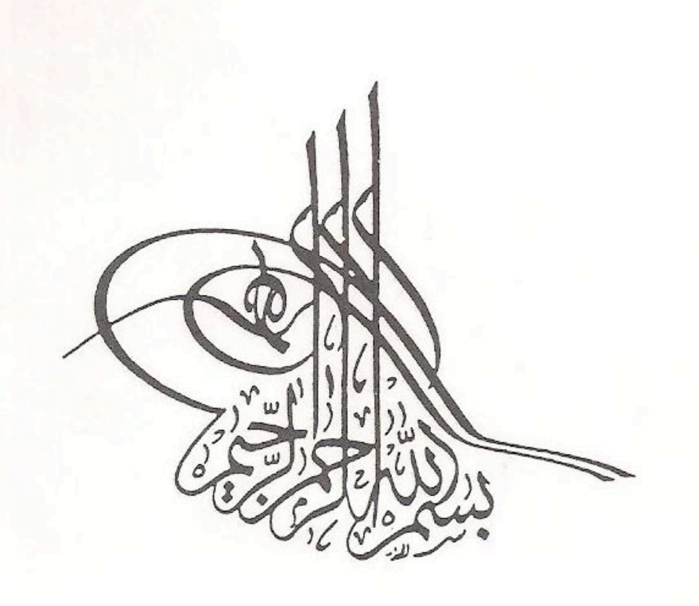
لمشاهدة حلقة صفحات من حياتي

مع الشيخ صالح الشامي

www.archive.org/details/MyLife_SalehAl-Shami

www.youtube.com/user/baramegdoaa




بسم الله الرحمن الرحيم

البيان في مصايد الشيطان

للإمام ابن قيّم الجوزيّة

(٦٩١ - ٧٥١هـ)

إعداد

صالح أحمد الشّامي

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

مقدمة الإعداد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا محمد النبيّ الأمي. وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فقد سجلت آيات القرآن الكريم قصة امتناع إبليس عن السجود لآدم، وعصيانه لأمر الله تعالىٰ، ثم طلبه من الله تعالىٰ الإنظار إلى يوم البعث، ثم توعده ـ بعد ذلك ـ لبني آدم بالإضلال والغواية.

وقد سجلت الآيات الكريمة هذا التوعد بقوله:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾[1].

ولم يكتف إبليس ـ لعنه الله ـ بالتوعد، بل شرح خطة عمله، والسبل التي سوف يسلكها في إغواء بني آدم، مبيناً ذلك بقوله، كما نصت عليه الآيات الكريمة:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم

(١) سورة الحجر: الآيات (٣٦ ـ ٤٢).

﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾[1].

وهكذا فتح إبليس جبهات العداوة لبني آدم من جميع الجهات، فهي عداوة مستحكمة مستمرة.

وإزاء ذلك كان لا بدّ للإنسان من أن يجهز نفسه بكل الوسائل الممكنة كي يدفع عنها الهلاك الأبدي.

وهذا ما أرشد الله تعالىٰ إليه في آيات كثيرة:

فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾[4].

وليس هناك بيان أوضح من هذا، والآيات في ذلك كثيرة.

إلّا أن كيد الشيطان وعداوته لا تأثير لهما على عباد الله المخلصين، الذين استعاذوا بالله وتحصّنوا باتّباع أوامره والانتهاء عن نواهيه، مهتدين بهدي النبوة، متوكّلين عليه سبحانه وتعالىٰ.

وإزاء هذا الخطر الداهم، والعدو الكائد، كان لا بدّ للإنسان الحريص على السلامة من معرفة أكبر قدر ممكن عن هذا العدوّ حتى

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٦ ـ ١٧).
(٢) سورة البقرة: الآيتان (١٦٨ ـ ١٦٩).
(٣) سورة يوسف: الآية (٥).
(٤) سورة فاطر: الآية (٦).

يتخذ من الاحتياطات والتحصينات ما يدفع به الخطر عن نفسه.

ولهذا شغلت هذه القضية علماءنا، فذهبوا يبيّنون للناس مداخل هذا العدوّ ومخارجه، وكل ما يتعلق به.

وقد عدّت طائفة من العلماء أن هذه المعرفة في درجة الفرض، أي في أعلى درجات الوجوب.

قال الإمام شقيق البلخي المتوفى سنة (١٩٤هـ):

«لو أن رجلاً أقام مائتي سنة لا يعرف هذه الأربعة أشياء، لم ينج من النار إن شاء الله:

أحدها: معرفة الله تعالىٰ.

والثاني: معرفة نفسه.

والثالث: معرفة أمر الله ونهيه.

والرابع: معرفة عدوّ الله وعدوّ نفسه»[(١)].

وجاء بعده الإمام الحارث المحاسبي المتوفى سنة (٢٤٢هـ)، فأكد القول نفسه وشرحه في رسالة «شرح المعرفة وبذل النصيحة»[(٢)].

وجاء الإمام الغزالي فتناول هذا الموضوع في أماكن متعدّدة من كتابه «إحياء علوم الدين».

ورأى الإمام ابن الجوزي أن هذا الموضوع له من الخطر ما يستحق معه أن يُعالَج في كتاب مستقل، فوضع كتابه «تلبيس إبليس» لهذا الغرض.

---

(١) تهذيب حلية الأولياء (٢/٤٩٧)، أعدها صالح أحمد الشامي وطبعها المكتب الإسلامي.

(٢) حقق هذه الرسالة صالح أحمد الشامي، وطبعت في دار القلم بدمشق.

ثم جاء الإمام ابن القيم، فوضع كتابه «إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان» للغرض نفسه.

وهذا يدلّنا على مكانة الموضوع، وضرورة كونه في متناول الأيدي، قريباً من القارئ الحريص على آخرته.

ولهذا رأيت أن أخرج هذا الكتاب ـ كتاب ابن القيم ـ بهذا الشكل والحجم، مقتصراً فيه على المادة المتعلقة بمكايد الشيطان، دون غيرها، واضعاً يد القارئ عليها واحدة تلو الأخرى. بعد أن كان بحاجة إلى الغوص في لجج الكتاب للوصول إليها.

والله المرجوّ أن يجعل أعمالنا خالصة له إنه نعم المسؤول، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتاب «إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان»

طبع هذا الكتاب عدة مرات كان من آخرها:

طبعة المكتب الإسلامي بتحقيق الأستاذ محمد عفيفي، في مجلدين.

ثم طبعته دار الكتاب العربي بتحقيق الأستاذ خالد السبع العلمي، في مجلدين.

ويضم الكتاب بين دفّتيه موضوعين.

الأول: يتناول الحديث عن القلب، باعتباره الساحة التي يحوم حولها الشيطان للوصول إلى مآربه، وليس في هذا القسم من الكتاب ما يتعلق بمصايد الشيطان، وإنما هو الحديث عن القلوب في صحتها ومرضها وموتها، مما يصلح أن يكون تحت عنوان طب القلوب.

و«طب القلوب» عنوان كتاب للمؤلف لم يعثر له على مخطوطات حتى كتابة هذه الأسطر، فيما أعلم، وقد رأيت أن يخرج هذا القسم تحت العنوان المذكور في كتاب مستقل.

وقد شغل هذا الموضوع (١٦٠) صفحة من الجزء الأول، وأخرجها المصنف في اثني عشر باباً، ذكرها في مقدمة الكتاب.

أمّا الموضوع الثاني، فهو الموضوع الذي يندرج تحت عنوان الكتاب، وقد أخرجه المصنف في باب واحد، هو الباب الثالث عشر

من أبواب الكتاب، ويغطي من حيث المساحة: بقية المجلد الأول وكامل المجلد الثاني.

وهذا الباب تحته فصول كثيرة، بلغت ـ كما عددتُها ـ واحداً وثمانين ومائة فصل ـ حسب طبعة دار الكتاب العربي ـ، وهذه الفصول لا تحمل عناوين، وما ذكر منها فهو من وضع المحققين الذين اعتنوا بالكتاب. علماً بأن بعض هذه الفصول جاء في أسطر قليلة، وبعضها في عشرات الصفحات.

والأمر الملفت للنظر أنك لو استعرضت فهارس هذه الطبقات ـ وهي ليست من وضع المؤلف ـ لم تشعر أنك أمام موضوعات ترتبط ارتباطاً مباشراً بموضوع الكتاب، وإنما هي عناوين لموضوعات فقهية متنوّعة يتخلّلها قليل من العناوين المرتبطة بالموضوع. مما يجعل صورة البحث ومخطّطه غير واضح في ذهن القارئ.

وذلك يرجع إلى سببين:

أولهما: أسلوب المؤلف ـ رحمه الله ـ الذي يكثر فيه الاستطراد لأدنى مناسبة، وقد يطول هذا الاستطراد حتى يصل إلى ثمانين صفحة كما هو الشأن في أول الجزء الثاني. أو حتى يستغرق فصولاً عدة كما هو الشأن في الفصول (٣٦ ـ ٤٣)، الأمر الذي يقطع القارئ عن أصل الموضوع الذي هو فيه.

وثانيهما: أن الذين اعتنوا بالكتاب، لم يبذلوا الجهد الكافي لاستخراج أصول الموضوعات المتعلقة بالبحث، والتركيز عليها في بيان محتويات الكتاب، وإنما عَنْوَنوا كثيراً من الفقرات الاستطرادية بحسب موضوعها فجاءت مقطوعة عن موضوع الكتاب. ولكثرة هذه الاستطرادات، فقد غطّت فهرستها على فهرسة الموضوعات الرئيسة.

ومن الملاحظ أن المؤلف على كثرة الفصول التي ذكرها، كثيراً

ما يضع موضوعين في فصل واحد كما هو الشأن في الفصول (١٥، ٣٣، ٥٢، ١٢٩) الأمر الذي يغيب الموضوع الثاني إذا لم يكن القارئ على انتباه كامل ويقظة.

وفي المقابل، فإنه قد يعالج الموضوع الواحد في مكانين متباعدين، كما هو الشأن في الفصلين (١٧، ٣٤) فقد عالج فيهما كيد الشيطان في الصلاة، والفصول (٨، ١٣، ١٤) والفصلين (١٥، ١٨)...

هذه الأسباب وغيرها جعلتني أفكر في إخراج الموضوعات التي تنضوي تحت عنوان الكتاب لتكون قريبة من القارئ... الذي لم يعد لديه الوقت الذي يسمح له بإمعان الفكر لاستخراج ما هو من أصل الكتاب وما هو استطراد، الأمر الذي لم يتوقف عنده محقّقو الكتاب.

فكان هذا الكتاب.

عملي في الكتاب

إن الغاية من هذا العمل هي إخراج هذا الكتاب بحيث يضع يد القارئ على مكايد الشيطان ومصايده الواحدة تلو الأخرى. حتى يظل مرتبطاً بعنوان الكتاب ارتباطاً مباشراً.

وهو ما تمّ عمله، وأصبح القارئ أمام تسعة عشر فصلاً، هي مجموع الكتاب الذي حوى ما سجله الإمام ابن القيم من هذه المصايد.

فهو ليس اختصاراً، ولا انتقاء، وإنما هو مادة الكتاب التي وضعها المؤلف بعيداً عمّا ليس له علاقة بالموضوع.

ويحسن بي أن أسجل الملحوظات الآتية التي تبين العمل:

١ ـ لم أتدخل في عبارة المؤلف، فكل ما في الكتاب هو النص الذي كتبه المؤلف.

٢ ـ حذفت الأحاديث الضعيفة.

٣ ـ جمعت الفصول ذات الموضوع الواحد ـ والتي قد تكون متباعدة في الكتاب ـ في فصل واحد وتحت عنوان واحد.

٤ ـ قسمت كل فصل إلى فقرات بحيث يسهل على القارئ التعامل مع الموضوع.

٥ ـ حذفت الموضوعات المكرّرة.

٦ ـ خرجت الأحاديث تخريجاً مختصراً، فقد أكتفي بذكر مصدر واحد، ورقم الحديث فيه.

وحتى يكون القارئ الكريم على معرفة بتشكيل الفصول في هذا الكتاب، فإني أضع إلى جانب كل فصل الفصول التي انضوت تحته من فصول الأصل، وهي:

الفصل الأول: ١ ـ ٤.

الفصل الثاني: ٥.

الفصل الثالث: ٦، ٧.

الفصل الرابع: ٨ ، ١٣، ١٤.

الفصل الخامس: ٩.

الفصل السادس: ١٠ ـ ١٢.

الفصل السابع: ١٥ (القسم الأول منه)، ١٨ ـ ٣٠.

الفصل الثامن: ١٧، ٣٤.

الفصل التاسع: ١٥ (القسم الثاني منه)، ١٦، ٣٣ (القسم الثاني منه)، ٣٥، ٤٨، ٤٩.

الفصل العاشر: ٥٠، ٥١، ٥٢ (القسم الأول منه)، ٥٤، ٥٥.

الفصل الحادي عشر: ٥٢ (القسم الثاني منه)، ٥٦.

الفصل الثاني عشر: ٥٣.

الفصل الثالث عشر: ٥٧ ـ ٧١.

الفصل الرابع عشر: ٧٢ ـ ٨٩.

الفصل الخامس عشر: ٩٠ ـ ١١٤.

الفصل السادس عشر: ١١٥ ـ ١٢٩ (القسم الأول منه).

القسم السابع عشر: ١٢٩ (القسم الثاني منه) ـ ١٣٨.

هذا وأرجو الله أن يتقبّل هذا العمل وسائر أعمالي إنه سميع قريب، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٢٥ رمضان ١٤٢٠هـ
٢/ ١/ ٢٠٠٠م

كتبه

صالح أحمد الشامي

البيان في مصايد الشيطان

للإمام ابن قيم الجوزية

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

ربّنا آتنا من لدنك رحمة، وهيّء لنا من أمرنا رشداً، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

الحمد لله الذي ظهر لأوليائه بنعوت جلاله، وأنار قلوبهم بمشاهدة صفات كماله، وتعرّف إليهم بما أسداه إليهم من إنعامه وإفضاله، فعلموا أنه الواحد الأحد، الفرد الصمد. الذي لا شريك له في ذاته ولا صفاته ولا في أفعاله، بل هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به أحد من خلقه في إكثاره وإقلاله.

لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه على لسان من أكرمهم بإرساله، الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، ولا يحجب المخلوق عنه بستر سرباله. الحيّ القيوم، المنفرد بالبقاء وكل مخلوق منتهٍ إلى زواله.

السميع الذي يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنّن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين في سؤاله.

البصير الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء حيث كان من سهله أو جباله. وألطف من ذلك رؤيته لتقلّب قلب عبده، ومشاهدته لاختلاف أحواله، فإن أقبل إليه تلقاه،

وإنما إقبال العبد إليه من إقباله. وإن أعرض عنه لم يكله إلى عدوّه ولم يدعه في إهماله، بل يكون أرحم به من الوالدة بولدها الرفيقة به في حمله ورضاعه وفصاله، فإن تاب فهو أفرح بتوبته من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدوّية[1] المهلكة إذا وجده وقد تهيأ لموته وانقطاع أوصاله.

وإن أصرّ على الإعراض ولم يتعرّض لأسباب الرحمة بل أصرّ على العصيان في إدباره وإقباله، وصالح عدوّ الله وقاطع سيده، فقد استحق الهلاك، ولا يهلك على الله إلّا الشقي الهالك لعظم رحمته وسعة إفضاله.

وأشهد أن لا إلٰه إلّا الله وحده لا شريك له إلٰهاً واحداً أحداً فرداً صمداً جلّ عن الأشباه والأمثال، وتقدّس عن الأضداد والأنداد والشركاء والأشكال، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولا رادّ لحكمه، ولا معقب لأمره: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾[2].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله القائم له بحقّه، وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه، أرسله رحمةً للعالمين، وإماماً للمتّقين، وحسرةً على الكافرين، وحجةً على العالمين أجمعين، بعثه على حين فترة من الرسل، فهداهم به إلى أوضح الطرق وأقوم السُّبُل. وافترض على العباد طاعته ومحبّته، وتعظيمه وتوقيره والقيام بحقوقه، وسدّ إلى جنته جميع الطرق، فلم يفتح لأحد إلّا من طريقه، فشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وجعل الذلّة والصغار على من خالف أمره ونهيه، وأقسم بحياته في كتابه المبين وقرن اسمه باسمه،

---

(١) هي الصحراء.

(٢) سورة الرعد: الآية (١١).

فلا يذكر إلّا ذكر معه، كما في التشهّد والخطب والتأذين.

فلم يزل ﷺ قائماً بأمر الله لا يردّه عنه رادّ، مشمراً في مرضاة الله لا يصدّه عن ذلك صاد، إلى أن أشرقت الدنيا برسالته ضياء وابتهاجاً، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وسارت دعوته مسير الشمس في الأقطار، وبلغ دينه القيّم ما بلغ الليل والنهار.

ثم استأثر الله به لينجز له ما وعده به في كتابه المبين، بعد أن بلغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق الجهاد، وأقام الدين، وترك أمّته على البيضاء الواضحة البينة للسالكين. وقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[(١)].

أمّا بعد: فإن الله سبحانه وتعالىٰ لم يخلق خلقه سدىً مهملاً، بل جعلهم مورداً للتكليف، ومحلّاً للأمر والنهي، وألزمهم فهم ما أرشدهم إليه مجملاً ومفصلاً، وقسمهم إلى شقي وسعيد، وجعل لكل واحد من الفريقين منزلاً، وأعطاهم مواد العلم والعمل: من القلب، والسمع، والبصر، والجوارح، نعمة منه وتفضّلاً.

فمن استعمل ذلك في طاعته، وسلك به طريق معرفته على ما أرشد إليه ولم يبغ عنه عدولاً، فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك، وسلك به إلى مرضاة الله سبيلاً، ومن استعمله في إرادته وشهواته ولم يرعَ حق خالقه فيه تحسر إذا سئل عن ذلك، ويحزن حزناً طويلاً، فإنه لا بدّ من الحساب على حق هذه الأعضاء؛ لقوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[(٢)].

---

(١) سورة يوسف: الآية (١٠٨).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٣٦).

ولمّا كان القلب لهذه الأعضاء كالملِك المتصرّف في الجنود، الذي تصدر كلّها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلّها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال ﷺ: (**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ**)[1]، فهو ملكها، وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى يصدر عن قصده ونيّته. وهو المسؤول عنها كلّها، لأن كل راعٍ مسؤول عن رعيّته: كان الاهتمام بتصحيحه وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون.

ولما علم عدوّ الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزيّن له من الأحوال والأعمال ما يصدّه به عن الطريق، وأمدّه من أسباب الغَيّ بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق.

فلا نجاة من مصايده ومكايده إلّا بدوام الاستعانة بالله، والتعرّض لأسباب مرضاته. والتجاء القلب إليه في حركاته وسكناته، والتحقّق بذلّ العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان، ليحصل له الدخول في ضمان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[2]، فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لربّ العالمين، وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله سبحانه وتعالىٰ من المقرّبين، وشمله استثناء ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠﴾[3].

---

(١) متفق عليه (خ٥٢، م٥٩٩).

(٢) سورة الحجر: الآية (٤٢).

(٣) سورة الحجر: الآية (٤٠).

ولما منّ الله الكريم بلطفه بالاطّلاع على ما أطلع عليه من أمراض القلوب وأدوائها، وما يعرض لها من وساوس الشياطين أعدائها، وما تثمرها تلك الوساوس من الأعمال. وما يكسّب القلب بعدها من الأحوال ـ فإنّ العمل السيئ مصدره عن فساد القلب، ثم يعرض للقلب من فساد العمل قسوة، فيزداد مرضاً على مرضه حتى يموت، ويبقى لا حياة فيه ولا نور له. وكل ذلك من انفعاله لوسوسة الشيطان، وركونه إلى عدوّه الذي لا يفلح إلّا من جاهره بالعصيان ـ أردتُ أن أقيّد ذلك في هذا الكتاب، لأستذكره معترفاً فيه لله سبحانه بالفضل والنعمة؛ وينتفع به من نظر فيه داعياً لمؤلفه بالمغفرة والرحمة، وسميته:ـ

إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان

والله سبحانه وتعالىٰ يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مؤمّناً من الكَرَّة الخاسرة، وينفع به مصنفه وكاتبه، والناظر فيه في الدنيا والآخرة، إنه سميع عليم، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم[1].

(١) حذفت من المقدمة القسم المتعلق بطب القلوب، الذي أشرت إليه في مقدمتي.

الفصل الأول

عداوة الشيطان للإنسان

[توعد الشيطان لبني آدم]:

قال تعالىٰ إخباراً عن عدوّه إبليس، لما سأله عن امتناعه عن السجود لآدم واحتجاجه بأنه خيرٌ منه وإخراجه من الجنّة أنه سأله أن يُنْظِره، فأنْظَره، ثم قال عدوّ الله:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[1].

قال جمهور المفسّرين والنحاة: التقدير: لأقعدنّ لهم على صراطك.

قال ابن عباس: **دينك الواضح**؛ وقال ابن عباس: **هو كتاب الله**.

وقال جابر: **هو الإسلام**.

وقال مجاهد: **هو الحق**.

والجميع عبارات عن معنى واحد، وهو الطريق الموصل إلى الله، فما من طريق خيرٍ إلّا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك.

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٦ ـ ١٧).

وقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾.

قال ابن عباس، في رواية عطية عنه: «**مِنْ قِبَل الدنيا**»، وفي رواية عَلِيّ عنه: **أُشكّكهم في آخرتهم**.

وكذلك قال الحسن: **من قبل الآخرة، تكذيباً بالبعث والجنة والنار**.

وقال مجاهد: **من بين أيديهم: من حيث يبصرون**.

وقوله: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾.

قال ابن عباس: **أرغبهم في دنياهم**.

وقال الحسن: **من قبل دنياهم** أزيِّنها إليهم وأشَهِّيها.

- وعن ابن عباس رواية أخرى: **من قِبَل الآخرة**.

- وقال أبو صالح: **أُشكّكهم في الآخرة وأباعدها عليهم**.

وقال مجاهد أيضاً: **من حيث لا يبصرون**.

[وقوله]: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾.

قال ابن عباس: **أُشَبِّه عليهم أمر دينهم**.

وقال أبو صالح: **الحقُّ أشكّكهم فيه**.

وعن ابن عباس أيضاً: **من قبل حسناتهم**.

قال الحسن: من قبل الحسنات أثبطهم عنها.

وقال الحسن: ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ **السيئات يأمرهم بها ويَحُثُّهم عليها، ويزيّنها في أعينهم**.

وصحّ عن ابن عباس أنّه قال: **ولم يقل من فوقهم لأنه علم أن الله من فوقهم**.

وقال الشعبي: **فإن الله عزّ وجلّ أنزل الرحمةَ عليهم من فوقهم.**

وقال قتادة: **أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله.**

قال الواحدي: وقول من قال: **الأيمان كناية عن الحسنات، والشمائل كناية عن السيئات**؛ حَسَنٌ، لأن العرب تقول: **اجعلني في يمينك، ولا تجعلني في شمالك، تريد: اجعلني من المتقدمين عندك، ولا تجعلني من المؤخرين.**

وحكى الأزهري عن بعضهم في هذه الآية: **لأغوينهم حتى يكذبوا بما تقدّم** من أمور الأمم السالفة، ومن خلفهم بأمر البعث، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم: أي لأضلنهم فيما يعملون، لأن الكسب يقال فيه: ذلك بما كسبت يداك، وإن كانت اليدان لم يجنيا شيئاً، لأنهما الأصل في التصرّف، فجعلتا مثلاً لجميع ما يعمل بغيرهما.

وقال آخرون ـ منهم أبو إسحاق، والزمخشري ـ واللفظ لأبي إسحاق: ذكر هذه الوجوه للمبالغة في التوكيد، أي: لآتينهم من جميع الجهات، والحقيقة ـ والله أعلم ـ أتصرّف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم.

وقال الزمخشري: **ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله لما أمكنه وقدر عليه؛** كقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾[1].

وهذا يوافق لما حكيناه عن قتادة: **أتاك من كل وجه غير أنه لم**

(١) سورة الإسراء: الآية (٦٤).

يأتك من فوقك، وهذا القول أعمّ فائدة، ولا يناقض ما قاله السلف، فإن ذلك على جهة التمثيل لا التعيين.

قلت: السُّبُل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأيُّ سبيل سلَكها من هذه وجد الشيطانَ رصداً له، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يُثَبِّطه عنها ويقطعه، أو يعُوقه ويُبَطِّئه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له خادماً ومعيناً وممنياً، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك.

ومما يشهد لصحة أقوال السلف قوله تعالىٰ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[1].

فقول عدوّ الله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، يتناول الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾، فإن كانت الحسنات عن اليمين يستحثّ صاحبه على فعل الخير، فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يُثَبِّطه عنه، وإن كانت السيّئات على الشمال ينهاه عنها فيأتيه من تلك الجهة يحَرِّضه عليها.

وهذا تفصيل ما أجمله في قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

[بيان إبليس خطة عمله في الإضلال]:

وقال تعالىٰ:

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا

---

(١) سورة فصلت: الآية (٢٥).

(٢) سورة ص: الآية (٨٢).

﴿مَفْرُوضًا ۝١١٨ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ۝١١٩ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢٠﴾[1].

قال الضحاك: **مَفروضاً أي معلوماً**.

وقال الزجاج: **أي نصيباً افترضتُهُ على نفسي**.

وقال الفراء: **يعني ما جُعل له عليه السبيلُ** من الناس، فهو كالمفروض.

قلت: حقيقة الفَرْض هو التقدير، والمعنى: أن من اتَّبع الشيطانَ وأطاعه فهو من نصيبه المفروض وحظّه المقسوم. فكل من أطاع عدوّ الله فهو من مفروضه، فالناس قسمان:

نصيب الشيطان ومفروضه.

وأولياء الله وحزبه وخاصته.

وقوله: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ يعني عن الحق ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ قال ابن عباس: **يريد تسويف التوبة وتأخيرها**.

وقال الزجاج: **أجمع لهم مع الإضلال أن أوهمهم أنهم ينالون مع ذلك حظّهم من الآخرة**.

وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ﴾.

البَتْك: القطع، وهو في هذا الموضع: قطع آذان البحيرة، عند جميع المفسّرين.

ومن هٰهنا كره جمهور أهل العلم تثقيب أذني الطفل للحلق،

---

(١) سورة النساء: الآيات (١١٧ ـ ١٢٠).

ورخص بعضهم في ذلك للأنثى، دون الذكر؛ لحاجتها إلى الحلية واحتجّوا بحديث أمِّ زرْعٍ، وفيه: «**أناسَ مِنْ حُلي أُذُنَيّ**»[1].

وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾.

قال ابن عباس: يريد دين الله، وهو قول إبراهيم، ومجاهد، والحسن، والضحاك، وقتادة، والسُّدّي، وسعيد بن المسيّب، وسعيد بن جُبير.

ومعنى ذلك: هو أن الله تعالىٰ فَطَرَ عباده على الفِطْرة المستقيمة، **وهي مِلّة الإسلام**؛ كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2].

ولهذا قال ﷺ: (**ما من مولود إلاّ يُولد على الفِطْرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كما تُنْتَجُ البهيمة بَهيمةً جَمْعاء، هل تجدون فيها من جَدْعاء، حتى تكونوا أنتم تَجْدَعونها**)؟ ثم قرأ أبو هريرة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية، متفق عليه[3].

فجمع النبيّ ﷺ بين الأمرين:

تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير.

وتغيير الخلقة بالجَدْعِ.

وهما الأمران اللذان أخبر إبليس أنه لا بدّ أن يُغَيِّرهما، فِطْرة الله بالكفر، وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها، وغَيَّر الصورة بالجَدْع والبَتْك، فغيَّر الفطرة إلى الشرك، والخِلْقة إلى البَتْك والقطع، فهذا

---

(١) متفق عليه (خ ٥١٨٩، م ٢٤٤٨).

(٢) سورة الروم: الآية (٣٠).

(٣) متفق عليه (خ ١٣٥٩، م٢٦٥٨).

تغيير خلقة الروح، وهذا تغيير خلقة الصورة.

ثم قال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ﴾.

فوعدُهُ: ما يصل إليه قلب الإنسان، نحو: سيطول عُمرُك، وتنالُ من الدنيا أربك، وستعلو على أقْرَانِك، وتظفر بأعدائك، والدنيا دُوَلٌ ستكون لك كما كانت لغيرك، ويطوِّل أمله، ويَعِدُهُ بالحُسْنى على شِرْكه ومعاصيه، ويُمَنِّيه الأماني الكاذبة على اختلاف وجوهها.

والفرق بين وَعْدِه وتمنيته: أن الوعد في الخير والتمنية في الطلب والإرادة.

فيَعِدُه الباطل المحال الذي لا حقيقة له، وهو الغرور.

ويمنّيه الذي لا حاصل له.

ومن تأمّل أحوال أكثر الناس وجدهم متعلّقين بوعده وتمنيته وهم لا يشعرون أنه يَعِدُ الباطل ويمنّي المحال، والنفس المهينة التي لا قُدْرة لها تغتذي بوعده وتمنيته.

فالنفس المبطلة الخسيسة تلتذّ بالأماني الباطلة والوعود الكاذبة، وتفرح بها، كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحرّكون لها.

فالأقوال الباطلة مصدرها وَعْدُ الشيطان وتَمْنِيَتُهُ، فإنه يمني أصحابها الظفر بالحق وإدراكه، ويَعِدُهم الوصول إليه من غير طريقه، فكل مبطل فله نصيب من قوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾[1].

[الشيطان يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء]

ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم

(١) سورة النساء: الآية (١٢٠).

﴿بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾[1].

قيل: ﴿يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ يخوّفكم به، يقول: إن أنفقتم أموالكم افتقرتم.

﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾، قالوا: هي البخل في هذا الموضع خاصة، ويُذكَر عن مقاتل والكلبي: **كل فحشاء في القرآن فهي الزنا، إلاّ في هذا الموضع فإنها البخل.**

والصواب: أن الفحشاء على بابها، وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف محذوف، فحذف موصوفها إرادة للعموم، أي: بالفَعْلَة الفحشاء والخلَّة الفحشاء، ومن جملتها البخل.

فذكر سبحانه وَعْد الشيطان وأمره، يأمر بالشر، ويخوف من فعل الخير.

وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان.

فإنه إذا خوّفه من فعل الخير تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزيّنها له ارتكبها، وسمى سبحانه تَخْويفه وَعْداً لانتظار الذي خوّفه إياه كما ينتظر الموعود ما وعد به.

ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته، وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهي المغفرة والفضل، فالمغفرة: وقاية الشر، والفضل: إعطاء الخير.

[طريقة الشيطان في تغريره ببني آدم]

ومن كيده للإنسان: أنه يورده الموارد التي يُخَيِّلُ إليه أنَّ فيها منفعته، ثم يُصْدِرُهُ المصادر التي فيها عَطَبه، ويتخلَّى عنه ويُسْلمه

(١) سورة البقرة: الآية (٢٦٨).

ويَقِفُ يَشْمَتُ به، ويضحك منه، فيأمره بالسَّرقة والزنا والقتل، ويدلّ عليه ويفضحه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾(١).

فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بَدْرٍ في صورة سُراقة بن مالك، وقال: **أنا جار لكم من بَني كِنَانة أن يَقْصِدوا أهْلَكم وذراريكم بسوء، فلما رأى عدوّ الله جنود الله من الملائكة نزلت لنصر رسوله ﷺ فَرَّ عنهم، وأسلمهم**؛ كما قال حسان:

دَلَّاهم بِغُرورٍ، ثم أسلمهم إن الخبيث لمن والاه غَرّار

وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا ثم بقتلها، ثم دَلّ أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فَرَّ عنه وتركه. وفيه أنزل الله سبحانه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾(٢).

وهذا السياق لا يختصّ بالذي ذُكِرَت عنه هذه القصة(٣)، بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته؛ فإنه يتبرّأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾(٤)، فأوردهم شرّ الموارد وتبرّأ منهم كل البراءة.

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٤٨).

(٢) سورة الحشر: الآية (١٦).

(٣) ذكر ابن كثير هذه القصة عند تفسير الآية الكريمة نقلاً عن ابن جرير.

(٤) سورة إبراهيم: الآية (٢٢).

وتكلّم الناس في قول عدوّ الله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾.

فقال قتادة وابن إسحاق: **صدق عدوّ الله في قوله**: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾، وكذب في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوّة له ولا مَنَعَة فأوردهم وأسلمهم، وكذلك عادة عدوّ الله بمن أطاعه.

[تخويف الشيطان للمؤمنين بجنده وأوليائه]

ومن كيد عدوّ الله تعالىٰ: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر؛ وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان.

وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾[1].

المعنى عند جميع المفسّرين: يخوّفكم بأوليائه.

قال قتادة: **يعظمهم في صدوركم**، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلّما ضعف إيمان العبد قوي خوفه منهم.

[التزيين وسيلة الشيطان للتأثير على العقل]

ومن مكايده أنه يسحر العقل دائماً حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلّا من يشاء الله، فيزيّن له الفعل الذي يضرّه حتى يخيّل إليه أنه من أنفع الأشياء، وينفّره من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له، حتى يخيِّل له أنه يضرّه.

فلا إلٰه إلّا الله، كم فتن بهذا السحر من إنسان، وكم حالَ به

(١) سورة آل عمران: الآية (١٧٥).

بَيْن القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان؟ وكم جلّى الباطلَ وأبرزه في صورة مستحسنة، وشنع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة؟ وكم بَهْرَج من الزُّيوف على الناقدين، وكم روّج من الزغل على العارفين؟.

فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك، وزيّن لهم من عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمهات.

ووعدهم الفوز بالجنّات مع الكفر والفسوق والعصيان. وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالىٰ وعلوّه على عرشه وتكلّمه بكتبه في قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودّد إلى الناس، وحسن الخلق معهم، والعمل بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[1]، والإعراض عمّا جاء به الرسول في قالب التقليد، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم، والنفاق والادّهان في دين الله في قالب العقل المعيشي الذي يندرج به العبد بين الناس.

[كيد الشيطان للأمم السابقة]

فهو صاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنّة.

وصاحب قابيل حين قتل أخاه.

وصاحب **قوم نوح** حين أغرقوا.

وقوم عاد حين أهلكوا بالريح العقيم.

وصاحب **قوم صالح** حين أهلكوا بالصيحة.

---

(١) سورة المائدة: الآية (١٠٥).

وصاحب **الأمة اللوطية** حين خُسِفَ بهم وأُتْبِعُوا بالرجم بالحجارة.

وصاحب **فرعون وقومه** حين أُخِذُوا الأَخْذَة الرَّابية.

وصاحب **عباد العجل** حين جرى عليهم ما جرى.

وصاحب **قريش حين دعوا** يوم بدر.

وصاحب كل هالك مفتون.

[كيده لآدم وحواء]

وأوّل كيده ومكره: أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة: أنه ناصح لهما، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنّة.

قال تعالىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾(١).

فالوسوسة: حديث النفس والصوت الخفي، **ورجل موسوس بكسر الواو**، ولا يفتح فإنه لحن، وإنما قيل له: موسوس؛ لأن نفسه توسوس إليه.

وعلم عدوّ الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما، فإنها معصية، والمعصية تهتك ستر ما بين الله وبين العبد، فلمّا عصيا ٱنْهَتَكَ ذلك الستر فبدت لهما سوآتهما، فالمعصية تبدي السوأة الباطنة والظاهرة.

فإن الله سبحانه أنزل لباسين: لباساً ظاهراً يواري العورة

---

(١) سورة الأعراف: الآيات (٢٠ ـ ٢٢).

ويسترها، ولباساً باطناً من التقوى، يجمل العبد ويستره، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها.

ثم قال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾، أي: إلا كراهة أن تكونا ملكين، وكراهة أن تخلدا في الجنّة.

ومن هٰهنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها.

وهذا باب كَيْدِه الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه، ويخالطه، ويسألها عمّا تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب.

وكذلك علّم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رامَ الدخول من غيره، فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود.

فشامّ عدو الله الأبوين، فأحسّ منهما إيناساً وركوناً إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم، فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين، وقال: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

وكان عبد الله بن عباس يقرؤها ملِكين بكسر اللام، ويقول: «**لم يطمعا أن يكونا من الملائكة، ولكن استشرفا أن يكونا ملِكين فأتاهما من جهة الملك**»، ويدلّ على هذه القراءة قوله في الآية

الأخرى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾(1).

وأمّا على القراءة المشهورة، فيقال: كيف أطمع عدو الله آدم أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب، وكان آدم أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله، ولا سيما ممّا نهاه الله عنه؟.

فالجواب: أن آدم وحواء لم يطمعا في ذلك أصلاً، وإنما كَذَبهما عدو الله وغرّهما، وخدعهما بأن سمّى تلك الشجرة شجرة الخلد، فهذا أول المكر والكيد.

ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمّياتها، فسموا الخمر: أم الأفراح، وسموا أخاها بلقيمة الراحة، وسموا الربا بالمعاملة، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية، وسموا أقبح الظلم وأفحشه شرع الديوان، وسموا أبلغ الكفر، وهو جحد صفات الرب؛ تنزيهاً، وسموا مجالس الفسوق مجالس الطيبة.

فلما سماها شجرة الخلد قال: ما نهاكما عن هذه الشجرة إلّا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنّة ولا تموتا فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون.

ولم يكن آدم قد علم أنه يموت بعد، واشتهى الخلود في الجنّة، وحصلت الشبهة من قول العدوّ وإقسامه بالله جهد أيمانه، أنه ناصح لهما.

فاجتمعت الشبهة والشهوة، وساعد القدر لما قد فرغ الله سبحانه من تقديره، فأخذتهما سِنَةُ الغَفْلَة، واستيقظ لهما العدو.

ـ ثم قال تعالىٰ: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖ﴾.

---

(1) سورة طه: الآية (١٢٠).

قال أبو عبيدة: **خذلهما وخلّاهما، من تَدْلِيَةِ الدلْوِ، وهو إرساله في البئر.**

قال مُطَرِّفُ بن عبد الله: **قال لهما إني خُلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرْشِدْكما. وحلف لهما، وإنما يُخدع المؤمن بالله.**

قال قتادة: وكان بعض أهل العلم يقول: **من خادعنا، بالله خُدعنا، فالمؤمن غرٌّ كريم والفاجر خَبٌّ لئيم.**

وفي الصحيح: **أن عيسى ابن مريم (عليه السلام) رأى رجلاً يسرق، فقال: سرقت؟ فقال: لا والله والذي لا إلٰه إلاّ هو، فقال المسيح: «آمنت بالله وكذّبت بصري»**[1].

وقد تأوّله بعضهم على أنه لما حلف له جَوَّز أن يكون قد أخذ من ماله، فظنّه المسيح سرقة؛ وهذا تكلّف.

وإنما كان الله سبحانه في قلب المسيح أجلّ وأعظم من أن يحلف به أحد كاذباً، فلما حلف له السارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بصره، فردّ التهمة إلى بصره لما اجتهد له في اليمين بالله، كما ظنّ آدم صدق إبليس لما حلف له بالله، وقال: ما ظننت أحداً يحلف بالله كاذباً.

---

(١) متفق عليه (خ٣٤٤٤، م٢٣٦٨).

الفصل الثاني

مجال عمل الشيطان هو في الغُلُوّ والتقصير

ومن كيده العجيب: أنه يشام النفس، حتى تعلم أي القوّتين تغلب عليها: قوة الإقدام والشجاعة، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة؟.

فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ في تثبيطه وإضعاف همّته وإرادته عن المأمور به، وثَقَّله عليه، وهوّن عليه تركه، حتى يتركه جملة، أو يقصّر فيه ويتهاون به.

وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلوّ الهمة أخذ يقلل عنده المأمور به، ويوهمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة.

فيقصر بالأول ويتجاوز بالثاني.

كما قال بعض السلف: **ما أمر الله سبحانه بأمر إلاّ وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلوّ. ولا يبالي بأيهما ظفر.**

وقد اقْتُطِعَ أكثر الناس إلّا أقل القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدّي. والقليل منهم جدّاً الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

فقوم قَصّر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحدّ بالوسواس.

وقوم قَصّر بهم عن إخراج الواجب من المال، وقوم تجاوز بهم حتى أخرجوا جميع ما في أيديهم وقعدوا كَلّاً على الناس، مستشرفين إلى ما بأيديهم.

وقوم قَصّر بهم عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس حتى أضرّوا بأبدانهم وقلوبهم، وقوم تجاوز بهم حتى أخذوا فوق الحاجة فأضَرُّوا بقلوبهم وأبدانهم.

وكذلك قَصّر بقوم في حقّ الأنبياء وورثتهم حتى قتلوهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم.

وقَصّر بقوم في خُلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات، كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلُّم العلم، وتجاوز بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام.

وقَصّر بقوم حتى امتنعوا من ذبح عصفور أو شاة ليأكله، وتجاوز بآخرين حتى جرّأهم على الدماء المعصومة.

وكذلك قَصّر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به.

وقَصّر بقوم حتى أطعمهم من العشب ونبات البرية، دون غذاء بني آدم، وتجاوز بآخرين حتى أطعمهم الحرام الخالص.

وقَصّر بقوم حتى زيّن لهم ترك سُنّة رسول الله ﷺ من النكاح، فرغبوا عنه بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى ارتكبوا ما وصلوا إليه من الحرام.

وقَصّر بقوم حتى جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح، وأعرضوا عنهم، ولم يقوموا بحقّهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله.

وكذلك قَصّر بقوم حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات إليها بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما حلّلوه والحرام ما حرّموه، وقدموا أقوالهم على سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة.

وقَصّر بقوم حتى قالوا: إن الله سبحانه لا يقدر على أفعال عباده ولا شاءها منهم، ولكنهم يعمَلُونها بدون مشيئته وقدرته، وتجاوز بآخرين حتى قالوا: إنهم لا يفعلون شيئاً ألبتّة، وإنما الله سبحانه هو فاعل تلك الأفعال حقيقة، فهي نفس فعله لا أفعالهم، والعبيد ليس لهم قدرة ولا فعل ألبتّة.

وقَصّر بقوم حتى قالوا: إن ربّ العالمين سبحانه ليس داخلاً في خلقه ولا بائناً عنهم، ولا هو فوقهم ولا تحتهم ولا خلفهم ولا أمامهم ولا عن أيمانهم ولا عن شمائلهم، وتجاوز بآخرين حتى قالوا: هو في كل مكان بذاته، كالهواء الذي هو داخل في كل مكان.

وقَصّر بقوم حتى قالوا: لم يتكلم الربّ سبحانه بكلمة واحدة ألبتّة، وتجاوز بآخرين حتى قالوا: لم يزل أزلاً وأبداً قائلاً: يا إبليس ما منعك ألّا تسجد لما خلقت بيدي، ويقول لموسى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾، فلا يزال هذا الخطاب قائماً به ومسموعاً منه، كقيام صفة الحياة به.

وقَصّر بقوم حتى قالوا: إن الله سبحانه لا يُشَفِّع أحداً في أحد ألبتّة، ولا يرحم أحداً بشفاعة أحد، وتجاوز بآخرين حتى زعموا أن المخلوق يشفع عنده بغير إذنه، كما يشفع ذو الجاه عند الملوك ونحوهم.

وقَصّر بقوم حتى قالوا: إيمان أفسق الناس وأظلمهم كإيمان جبريل وميكائيل، فضلاً عن أبي بكر وعمر، وتجاوز بآخرين حتى أخرجوا من الإسلام بالكبيرة الواحدة.

وقَصّر بقوم حتى نفوا حقائق أسماء الرب تعالىٰ وصفاته وعَطّلوه منها، وتجاوز بآخرين حتى شبّهوه بخلقه ومَثّلوه بهم.

وقَصّر بقوم حتى عادوا أهل بيت رسول الله ﷺ، وقاتلوهم واستحلّوا من حرمتهم، وتجاوز بقوم حتى ادّعوا فيهم خصائص النبوّة: من العصمة وغيرها، وربما ادّعوا فيهم الإلٰهية.

وكذلك قَصّر باليهود في المسيح حتى كذبوه ورموه وأمّه بما برأهما الله منه، وتجاوز بالنصارى حتى جعلوه ابن الله، وجعلوه إلٰهاً يعبد مع الله.

وقَصّر بقوم حتى نفوا الأسباب والقوى والطبائع والغرائز، وتجاوز بآخرين حتى جعلوها أمراً لازماً لا يمكن تغييره ولا تبديله، وربما جعلها بعضهم مستقلة بالتأثير.

وقَصّر بقوم حتى تعبدوا بالنجاسات، وهم النصارى وأشباههم، وتجاوز بقوم حتى أفضى بهم الوسواس إلى الآصار والأغلال، وهم أشباه اليهود.

وقَصّر بقوم حتى تزيّنوا للناس وأظهروا لهم من الأعمال والعبادات ما يحمدونهم عليه، وتجاوز بقوم حتى أظهروا لهم من القبائح ومن الأعمال السيّئة ما يسقطون به جاههم عندهم، وسمّوا أنفسهم الملامتية.

وقَصّر بقوم حتى أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا إليها وعدوها فضلاً، أو فضولاً، وتجاوز بآخرين حتى قصروا نظرهم وعملهم عليها، ولم يلتفتوا إلى كثير من أعمال الجوارح، وقالوا: العارف لا يسقط وارده لورده.

وهذا باب واسع جداً لو تتبعناه لبلغ مبلغاً كثيراً، وإنما أشرنا إليه أدنى إشارة.

الفصل الثالث

كيد الشيطان في ميدان العلم

[كيده في تزيين اتباع الهوى]

ومن حيله ومكايده: الكلام الباطل، والآراء المتهافتة، والخيالات المتناقضة، التي هي زبالة الأذهان، ونُحاتة الأفكار، والزَّبَد الذي يقذف به القلوب المظلمة المتحيِّرة، التي تعدل الحق بالباطل، والخطأ بالصواب، قد تقاذفت بها أمواج الشبهات، ورانَتْ عليها غيوم الخيالات، فمركبها القيل والقال، والشك والتشكيك، وكثرة الجدال، ليس لها حاصل من اليقين يعول عليه، ولا معتقد مطابق للحق يُرجع إليه، يوحي بعضهم إلى بعض زُخْرُف القول غروراً؛ فقد اتّخذوا لأجل ذلك القرآن مهجوراً، وقالوا من عند أنفسهم فقالوا مُنكراً من القول وزوراً، فهم في شكِّهم يَعْمَهون، وفي حَيْرتهم يَتَرَدَّدون، نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ألسنة أسلافهم من أهل الضلال، فهم إليه يتحاكمون، وبه يتخاصمون، فارقوا الدليل واتّبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل.

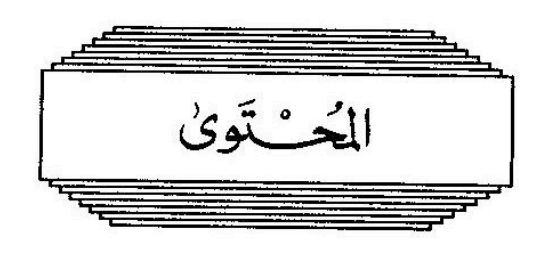
[كيده في تزيين الأدلّة العقلية]

ومن كيده بهم وتحيله على إخراجهم من العلم والدين: أن ألقى على ألسنتهم: أن كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لا تفيد اليقين،

وأوحى إليهم أن القواطع والبراهين اليقينية في المناهج الفلسفية، والطرق الكلامية.

فحال بينهم وبين اقتباس الهدى واليقين من مِشْكاة القرآن، وأحالهم على منطق اليونان، وعلى ما عندهم من الدعاوى الكاذبة العَرِيَّة عن البرهان، وقال لهم: تلك علوم قديمة صَقَلَتها العقول والأذهان، ومرتْ عليها القرون والأزمان.

فانظر كيف تلطَّف بكيده ومكره حتى أخرجهم من الإيمان والدين كإخراج الشعرة من العجين.



الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الفصل الحادي عشر	
ما شرعه الإسلام بشأن القبور	١١١
الزيارة المشروعة للقبور	١١١
الفرق بين زيارة الموحدين وزيارة المشركين	١١٥
الفصل الثاني عشر	
مكايد الشيطان بالأنصاب والأزلام	١١٩
الفصل الثالث عشر	
مكايد الشيطان في الغناء والمعازف والرقص	١٢٤
خطر الغناء وآثاره	١٢٤
أقوال أئمة المسلمين في الموضوع	١٢٦
سماع الغناء من الأجنبية والأمرد	١٢٨
أسماء الغناء وما جاء بشأنها	١٢٨
أدلة تحريم المعازف	١٣٧
الفصل الرابع عشر	
كيد الشيطان في أمور الطلاق	١٤٠
كيده في تحليل المطلقة	١٤٠
ما جاء في لعن التيس المستعار	١٤١
الرد على شبه مجيزي التحليل	١٤٣
السبب الذي أوقع الناس في التحليل	١٤٤
الطلاق الشرعي يبطل مكيدة الشيطان	١٤٥
الفصل الخامس عشر	
كيد الشيطان في مجال الحيل والخداع	١٥٠
الحيل نوعان	١٥٠
ميدان البحث: حيل إبطال الحق	١٥١
من أمثلة التحايل استحلال الربا باسم البيع	١٥١
أدلة تحريم الحيل	١٥٣
استدلال الأئمة على بطلان الحيل	١٥٨

من منشوراتنا

* من معين السيرة.
* من معين الشمائل النبوية.
* من معين الخصائص النبوية.
* السيرة النبوية (تربية أمة وبناء دولة).
* أضواء على دراسة السيرة.
* هكذا فهم السلف.
* الفرائض فقهاً وحساباً.
* الغرانيق (قصة دخيلة على السيرة النبوية).
* دراسة جمالية إسلامية في ثلاثة أجزاء:
  ١ ـ الظاهرة الجمالية في الإسلام.
  ٢ ـ ميادين الجمال.
  ٣ ـ التربية الجمالية في الإسلام.
* تحقيق الجمع بين الصحيحين للموصلي (في مجلدين).
* تحقيق المواهب اللدنية للقسطلاني (٤ مجلدات).
* تهذيب حلية الأولياء (٣ مجلدات).
* مواعظ الصحابة.
* سلسلة مواعظ علماء القرن الثاني ابتداء من الحسن البصري.

تحت الطبع:

* تهذيب «الشفا» للقاضي عياض.

(جميعها بقلم صالح أحمد الشامي)

من منشوراتنا

مشروع تقريب تراث الإمام ابن قيم الجوزية
رحمه الله
٦٩١ ـ ٧٥١هـ

صدر منها:

١ ـ تقريب طريق الهجرتين.
٢ ـ الوابل الصيب من الكلم الطيب.
٣ ـ سيرة خير العباد.
٤ ـ البيان في مصايد الشيطان.

تحت الطبع:

١ ـ الهدي النبوي في العبادات والآداب.
٢ ـ طب القلوب.
٣ ـ القضاء والقدر.